جهاد لا ينقطع

جِهَادٌ

لا ينقطع

إنَّ جهاد الرسول ﷺ بالقرآن موصولٌ لا ينقطع.

وقد نزَّل الله عليه "الفُرقان" ليكون للعالمين نذيراً.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ﴾[1] يدعوهم إلى الله تعالى، ولكنَّا خصَّصناك - يا محمدُ - بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تُبلِّغهم القرآن.

﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾.[2]

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾.[3]

﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ يعني بالقرآن، كما قال ابنُ عباس - رضي الله عنهما - فجهاد الرسول ﷺ بالقرآن موصولٌ في كل زمان ومكان، وقد بُعِثَ الرسول إلى ﷺ الناس عامة، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قومه خاصَّة.[4]

---

(1) الفرقان: ٥١.

(2) الأنعام: ١٩.

(3) الفرقان: ٥٢

(4) عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » البخاري: كتاب التيمم.

وقد يقول قائلٌ: إنَّ قولَ الله تعالى ـ مُخاطبا رسوله ﷺ ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ ـ خاصٌّ بالرسول ﷺ وهو يجاهد الكُفَّارَ في زمنه، ويُنذرهم بالقرآن في حياته.

فكيف تقول إنَّ جهادَ الرسول ﷺ موصولٌ لا ينقطع؛ إذ كيف يكون ذلك بعد وفاته ﷺ ؟!

أَعُودُ فأقولُ: إننا نرى الرسول ﷺ في القرآن، ونرى القرآن الكريم فيه. فإنذاره ليس إنذاراً لِمَنْ كان في زمنه فحسب، وإنما هو إنذارٌ للعالمين إلى يوم الدين.

فلا ترى الرسولَ ﷺ مُنفصلاً عن القرآن، وإنْ لَقِيَ ربَّه.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾.[1]

أي: وهو نذيرٌ لكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ.

قال ابنُ حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، في قوله: ﴿ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾:

« مَنْ بَلَغَهُ القرآن فكأنَّما رَأَى النبيَّ ﷺ » زاد أبو خالد: « وَكَلَّمَهُ »[2]

وقد رواه ابنُ جرير من طريق أبي معشر، عن محمد بن كعب قال: « مَن بَلَغَهُ القرآنُ فَقَدْ أَبْلَغَهُ محمدٌ ﷺ ».[3]

---

(1) الأنعام: ١٩.

(2) تفسير ابن كثير: ٢/١٧٢.

(3) المرجع السابق نفسه.

﴿ وَمَن بَلَغَ ﴾ أي: وهو نذيرٌ لكل من بلغه، كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾.[1]

أي: « ومَن يكفر بالقرآن ـ من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم، وأهل الكتاب، وغيرهم من سائر طوائف بني آدم، على اختلاف ألوانهم وأشكالهم مِمَّن بلغه القرآن ـ فالنَّارُ موعده ».[2]

ومن هُنا يُعلم أنَّ للقرآن نوراً وناراً، فمَن أَبَى النورَ، فالنَّارُ موعدُه.

وفي صحيح مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

« وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ».[3]

وعن سعيد ابن جبير قال: « كنتُ لا أسمعُ بحديثٍ عن النبيِّ ﷺ على وجهه، إلاَّ وجدتُ مصداقَهُ أو تصديقه في القرآن .

فبلغني أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة ـ يهودي ولا نصراني ـ فلا يؤمن بي إلاَّ أدخله الله النار ».

فجعلت أقولُ: أين مصداقه في كتاب الله ؟

---

(1) هود: ١٧.

(2) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٧٨.

(3) مسلم: كتاب الإيمان.

قال: « وقلّما سمعتُ عن رسول الله إلاّ وجدتُ له تصديقاً في القرآن، حتى وجدتُ هذه الآية ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ قال: من المِلَلِ كلِّها ».[1]

وبعدُ.. فإنَّ الرسول ﷺ داعٍ إلى الله بما أُوحِيَ إليه إلى قيام الساعة، فليس بعده رسول، ولا بعد الكتاب المُنَزَّل عليه كتاب.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.[2]

ولذا فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد حَفِظَ لنا سُنَّةَ الرسول ﷺ كما حَفِظَ القرآن؛ حتى لا يغيب عن الناس ذِكْرٌ أو بيان.

فاتِّباعُ الرسول ﷺ اتِّبَاعٌ للقرآن، وَمَا سَنَّهُ الرَّسُول ﷺ فَيحُكْمِ الله سَنَّه.

كما قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: « وَمَا سَنَّ رسولُ الله ـ فيما ليس لله فيه حُكم ـ فبحُكْمِ الله سنَّهُ، وكذلك أخبرنا الله في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى

---

(1) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٧٨.

(2) الأعراف: ١٥٨.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[1] وقد سَنَّ رسولُ الله مع كتاب الله، وسَنَّ فيما ليس فيه بعينه نصٌّ كتاب. وكل ما سَنَّ فقد ألزمنا اللهُ اتِّباعه، وجعل في اتِّباعه طاعته، وفي الكنود عن اتباعه معصيته، التي لم يعذر بها خَلْقاً، ولم يجعل له من اتباع سُنن رسول الله مخرجاً ».

وكذلك قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ:

« إن الله ـ جَلَّ ثناؤه وتقدَّست أسماؤه ـ بَعَثَ محمداً بالهُدى ودين الحَقِّ؛ ليُظهره على الدِّين كُلِّه ولو كره المشركون،وأنزل عليه كتابَه الهدى والنور لمن اتبعه. وجعل رسولَه الدَّالَّ على ما أراد من ظاهره وباطنه، وخاصِّه وعامِّه،وناسخه ومنسوخه، وما قصد له الكتاب.

فكان رسول الله ﷺ هو المُعَبِّرُ عن كتاب الله،الدَّالُّ على معانيه. شاهده في ذلك أصحابُه الذين ارتضاهم الله لنبيِّه، واصطفاهم له، ونقلوا ذلك عنه. فكانوا هم أعلم الناس برسول الله ﷺ وبما أراد الله من كتابه؛ بمشاهدتهم وما قصد له الكتاب. فكانوا هم المُخْبِرِينَ عن ذلك بعد رسول الله ».

قال جابر ـ رضي الله عنه ـ: « وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ، وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ، وَمَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ »[2]

لذا كانت حياة الرسول ﷺ كلها معلومةً للناس، لا يخفى منها شيء، أي شيء.

---

(1) الشورى: ٥٢.

(2) مسلم: كتاب الحج.

ما كان يعمله في داخل بيته،من: غُسله، ووضوئه، ونومه، ومعاشرته لأزواجه، ومأكله، ومشربه، وما يدورُ في بيته من شئون، وما يُعَدُّ من طعام، وما يُوقَدُ من سراج. ما يلبسه، وما يتطيَّبُ به. هيئة فِراشه ومُداعبته لأزواجه،وملاطفته لأهل بيته. ذكرُه لربِّه، وقوفه في الصلاة بين يديه، ما يتلوه من قرآن، وما يواظب عليه من سُنن، وما يحرص عليه من نوافل.

في البيت زوجاتٌ يُحدِّثْنَ عن كل ما يقعُ منه، في أخص شئونه دون حَرَج. وفي خارج البيت، حيثُ الأعين ترقبه، والقلوب تتطلع إليه، والنفوس مشوقة لرؤيته، لا يكاد البابُ يُفتح،ولا يكاد الرسول ﷺ يخرج إلى الناس - في أيِّ شأن من شئونه - حتى ترى مَن يُسجِّل كُلَّ شيء، حتى حركات يده، وقَسَمَات وجهه، وهيئة مجلسه وتبسمه.

يُسجِّلون ما ينطقُ به، وما يصدر عنه من قيام أو قعود أو انتقال.

والصحابة - جميعاً - حريصون على أن يروه، وأن يسمعوا منه بِقَدْرِ حفاوتهم وحرصهم على التمسك بسُنَّته، والاهتداء بهديه.

إنَّ صحابةَ رسول الله ﷺ لم يتركوا شأناً من شئونه إلا وتحدَّثوا عنه.

ولم يُعرَفْ - في تاريخ البشر قاطبةً - أنَّ نبيّاً من الأنبياء، أو عظيماً من العظماء، اشتُهِرَت سيرته، وعُرِفَ كُلُّ شيء عنه، مثل ما تَمَّ لرسول الله محمد، خاتم النبيين، الذي أرسله الله تعالى رحمةً للعالمين

لقد حُفِظَ عنه كُلُّ شيء، وقام بين أيدينا سِجِلٌّ ناصعٌ، يقرؤه القارئ، فيرى نفسَه مع الرسول ﷺ بصفته وهيئته، وأكله ومَشربه، وقِيامه وقعوده، وسَعيه وعمله، وطِيبه وملبسه.

يراه قائماً في المسجد يَؤُمّ المُصلّينَ، وفي الميادين يقودُ المجاهدين.

يراه مع اليتيم، والضعيفِ، والخادمِ - في البيت وفي الطريق - يقضي حاجته. يرى بسمَته النَّيِّرَة، وحقيقته الكاملة، من لحظة بَعثته إلى أن لَقِيَ ربَّه. بل من ساعةِ وِلادته قبل أن يُبعث ويُوحى إليه.

يراه في داخل بيته وخارجه، صفحةً مُشرقةً، ليس فيها ما يُطْوَى أو يُنْكَر.

وَسَلْ كُتُبَ الحديث تُرشدك، ومصنَّفاتِ المغازي تُنبئك.

سَل التاريخَ الإسلاميَّ - وما أَجَلَّ شأنه - يُعطيك خَبَره.

واستنبئ مُسطّرات الشمائل والدلائل وهي ترسم أَثَرَه.

وقبل هذا وبعده، اقرأْ كتابَ اللّه تَعْرِفْه. وتأمَّل هدايته تجده.

عِشْ في روضة القرآن تَكُن في صُحبة الرسول ﷺ.

وَصِلْ حياتَك به تَصِلْ فؤادَك بالنور.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ ﴾.[1]

(1) المائدة: ١٥، ١٦.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾.[1]

نعم في دوْحَةِ القرآن ونور آياته تعرف الرسول وتراه. وتُدرك من أمره أنه خاتم النبيين، وأنه قد جاء مُبَلِّغاً رسالاتِ جميع الأنبياء.

ألاَ نقرأ في سورة "الشورى"

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾.[2]

فَدِينُه لم يَدَعْ فَضْلاً لِمَاضٍ إلاَّ سَجَّلَهُ. ولم يترك أَثَراً لنبيٍّ ـ فيه عبرة ٌ وعِظةٌ ـ إلاَّ وَضَّحَهُ وبَيَّنَهُ.

فهو دينُ نوحٍ، وإبراهيمَ، وموسى، وعيسى، ومحمد.

دِينُ اللّه الذي ارتضاه، ولم يرتَض لأحدٍ ديناً غيرَه.

لو أنهم خرجوا جميعاً إلى الخلق، ما وَسِعَهُم إلاَّ الإيمان به، ومناصرته، والدعوة إليه. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.[3]

---

(1) النساء: ١٧٤.

(2) الشورى: ١٣.

(3) آل عمران: ٨١.